إبراهيم النعمة

الدعوات القومية

نشأتها - تطورها - حكم الإسلام فيها

ابراهيم النعمة

الدعوات القومية

نشأتها – تطورها - حكم الاسلام فيها

بسم اللّه الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٢٩ - ٢٠٠٨

المحتـوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	٧-١١
الدعوات القومية وحكم الاسلام فيها.....	١٢-٣١
تعريف القومية- حب الانسان لقومه ووطنه- الاسلام والعصبية القبلية- مفهوم القومية بين الجاهلية والاسلام- حكم الاسلام في العصبية- ولاء المسلم- وصية النبيﷺ في حجة الوداع	
كيف نشأت الدعوة الى القومية.....	٣٢-٥٧
تجريد العروبة من الاسلام- مناهج دعاة القومية واهدافهم- الغرب والدعوات الغربية	
لماذا اختار الله العرب لحمل رسالة الاسلام.....	٥٨-٨٠
حب العرب- القران والعرب- طبيعة هذا الدين- موقفان متضادان- الشعوبية- خاتمة	

الإهداء

الى كل دعاة القومية في العالمين العربي والإسلامي، وبخاصة اولئك الذين غالوا بقوميتهم فاعتدوا على غيرها من القوميات، وغالوا بلغاتهم القومية ففضلوها على لغة القرآن تعصبا منهم لقومياتهم ولغاتهم.

اهدي هذا البحث المتواضع، لعله يكون سببا في عودة المخلصين منهم الى اعتزازهم باسلامهم لا بقوميتهم، وبلغة القرآن لا بلغاتهم القومية!

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ سورة النساء/١.

وقال:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ سورة المجادلة/٢٢.

وقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ذَكَرٍ مِّن خَلَقْنَٰكُمْ إِنَّا وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات/١٣.

وقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سورة التوبة ٢٣.

من هدي السنة النبوية

قال رسول الله ﷺ:

(...ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، او يدعو إلى عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية...) رواه مسلم.

وقال:

(ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية). رواه ابو داؤد باسناد حسن لغيره.

وقال:

(لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنّما هم فحم جهنّم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، إنّما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، النّاس كلهم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب) رواه الترمذي.

وقال ﷺ:

(يا أيها النّاس إن الرب واحد، والأب واحد وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنّما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي) رواه الحافظ ابن عساكر بسنده عن الامام مالك.

مقدمة

الحمد لله حمدا يُبلّغني رضاه! والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد خير من اصطفاه، وعلى آله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، وعلى من اتبع هداه إلى يوم الدين!.

أمّا بعد:

فما كان بودّي أن أكتب في موضوع عفى عليه الزمن، ونُكست راياته، وأخفقت شعاراته، في البلاد العربية، بعد أن ظلّ مدّة ليست بالقصيرة من الزمن رافعا رأسه هنا وهناك، وصارت له شعبية جماهيرية كبرى، حتى صار النّاس يقيسون إخلاص المخلص لأمته بقدر تحمّسه للدعوة إلى هذه القومية أو تلك: فمن القومية الطورانية التي دعا إليها (حزب الإتحاد والترقّي) في تركيا، إلى القومية الفينيقية التي دعا إليها (أنطوان سعادة) في سوريا ولبنان، إلى القومية الفرعونية التي دعا إليها عدد من الأدباء الذين يُشار إليهم بالبنان في مصر، إلى القومية الآشورية التي دعا إليها غير المسلمين في العراق، إلى القومية الكردية التي دعا إليها

القوميون من الأكراد–وما زالوا كذلك– إلى القومية البربرية في الجزائر، إلى غيرها من القوميات...! وقد اختطت كل قومية من هذه القوميات وغيرها منهجا لها: فبعضها نهج منهج الأخذ برابطة الطين والأرض، كما فعل دعاة القومية السورية، وبعضها أخذ بالرابطة العنصرية: كدعاة القومية الكردية والبربرية، وبعضها نهج منهج الأخذ برابطة اللغة والتاريخ كدعاة القومية العربية... وهذه الدعوات وإن كانت أُميتت وصارت في ذمة التاريخ، إلاّ أنّها تنتفض بين حين وآخر، ويقف دعاة لها هنا وهناك يرفعون راياتها من جديد، ويدعون إليها، سواء كان الدعاة لتلك القوميات من العرب أو الأكراد أو التركمان أو غيرهم.

ولا نريد أن نميط اللثام في هذه المقدمة عن الوجوه التي كان لها الأثر الكبير في إثارة تلك النعرات القومية التي فرّقت أمتنا، ومزّقت وحدتنا، وأضعفت كياننا، حتى استبدل دعاة القومية رابطتهم القومية بالرابطة الإسلامية، فكان الشتات والضياع، وكان الضعف والهوان.!

وفي مقابل الدعوات إلى القومية العربية رفعت عقيرتها (الشعوبية الحديثة): فقد وجدت مرتعا خصبا للنيل من العرب بعد دخول قوات الاحتلال إلى العراق، حتى صار الشعوبيون يرفضون القول بأنّ العراق بلد عربي، مع أنّ ما يقرب من ٨٠% (ثمانين في المائة) من سكانه هم من العرب، بل إنّ العراق كان عربيا في العصور الإسلامية الأولى–وما زال كذلك– وإنّ أعدادا كثيرة من القبائل العربية سكنت العراق، حتى قبل بعثة النبي محمدﷺ، وإنّ هذا البلد الذي يتنكرون لعروبته هو من المؤسسين للجامعة العربية. ولو كان (طرفة بن العبد) الشاعر الجاهلي بيننا، ورأى الشعوبية تصول وتجول بعد احتلال العراق لأنشد:

يا لكِ من قبَّرةٍ بمَعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّري ما شِئت أن تنقِّري

ولابد لي أن أسجل هنا أنّ قسما من دعاة الإسلام في العراق، كانوا يتحاشون من ذكر العروبة والعرب، مجاملة للأكراد والقوميات الأخرى أولا، وكردّ فعل على حركات

القومية العربية العلمانية التي أساءت في نهجها؛ فنفَّرت القوميات الأخرى ثانيا.! ولكن لا يجوز أن يكون هذا مؤديا إلى غمط النّاس حقّها، فإنّ العرب هم الذين نشروا الإسلام في بقاع الدنيا؛ ولولاهم–بعد الله– لما دخلت هذه الأمم والشعوب في دين الله.

ولا يفوتني أن أذكر أنّ هذا البحث لا يُرضي المتعصبين للفكر القومي، سواء كانوا من العرب أو الأكراد أو التركمان أو غيرهم! وهذا امر طبيعي؛ لأنّ كثيرا من دعاة القومية لا يريدون أن ينسب إلى قوميتهم أي نقص كان، فيعمل كل واحد منهم على الدفاع عنها بأي أسلوب كان. وقلّما نجد من هؤلاء من يعترف بالأخطاء التي ارتكبوها، والإساءات التي وقعوا فيها. ولا يهمني سخط هؤلاء أو أولئك، فحسبي أنّي أرضيت ضميري، وكتبت ما اعتقده صوابا، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمنّي ومن نفسي المقصرة.

وفي هذا البحث المتواضع ذكر عن نشأة الدعوة القومية، ومناهج دعاتها، وموقف الغرب من نشرها، وحكم

الإسلام فيها، ولماذا اختار الله العرب لحمل رسالة الإسلام، وما موقف المؤرخين من العرب في العصر الجاهلي، وأنهيت البحث بخاتمة. والله أسأل أن يسدد خطانا، ويلهمنا الصواب فيما نقول ونعمل، ويجمع كلمتنا تحت لواء الإسلام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل!.

إبراهيم النعمة

بغداد في الخامس عشر من شعبان سنة ١٤٢٩هـ

الموافق للسادس عشر من آب سنة ٢٠٠٨م

الدعوات القومية وحكم الإسلام فيها

تعريف القومية

القومية في اللغة: مصدر صناعي بإضافة ياء النسبة وتاء التأنيث إلى القوم.

والقوم: مصدر قام، وقد غلب على الرجال دون النّساء، وقوم كل رجل: شيعته وعشيرته[١].

أمّا في الاصطلاح: فإنّ دعاة الفكر القومي لم يتفقوا على تعريف واحد للقومية، حتى قال بعضهم:

((إنّ التعريف الجامع المانع للقومية يكاد يكون مستحيلا))[٢].

وهناك من اختار التعريف الآتي لها فقال: هي مبدأ سياسي اجتماعي، يفضل معه صاحبه كل ما يتعلّق بأمته على سواه مما يتعلّق بغيرها.

حب الإنسان لقومه ووطنه فطرة

(١) لسان العرب لابن منظور ٥٠٥/١٢، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١٢٤/٤.

(٢) جذور الفكر القومي والعلماني للدكتور: عدنان محمد زرزور ص٤٣. الطبعة الثالثة ١٤٢٠-١٩٩٩، المكتب الإسلامي، بيروت.

إنّ الله ﷻ فطر الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم على حب كل واحد منهم لأهله وعشيرته وقومه وأمته ووطنه. ويظلُّ هذا الحب مغروسا في قلبه ونفسه، حتى ولو أصابه من أهله وعشيرته الظلم والغبن، وقد قال الشاعر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة
وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام

وقال آخر:

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحبُّ إلا للحبيب الأوّل
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأوّل منزل

وقال آخر:

ذكرت بلادي فاستهلّت مدامعي
بشوق إلى عهد الصبا المتقادم
حننت إلى أرض بها اخضرّ شاربي
وقطّع عنّي قبل عقد التمائم

لذلك نجد النبي صلوات الله وسلامه عليه وقد أخرجه المشركون من موطنه –وهي أحبُّ بلاد الله إليه– يحنُّ إليها، وقد خاطب مكة يوما فقال:

(ما أطيبك من بلد، وأحبّك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[1].

وفي المدينة المنوّرة كان النبيﷺ يدعو الله أن يحبب إليهم المدينة كما حبب لهم مكة أو أشد فقال:

(اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد)[2].

ويدلنا على هذا-ايضا- ما كان من امر النبيﷺ-وهو في المدينة- حين يأتيه آت من مكة، فقد كان يسأله عن آخر أحوالها. فلما جاءه (أُصيل بن عبد الله الهذلي) قادما من مكة سأله النبي الكريم:

(يا أُصيل، كيف عهدت مكة؟!)

---

(١) رواه الترمذي برقم ٣٩٣٥ وقال: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. تحفة الأحوذي ٣٩٥/١٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة (باب:١٢) فتح الباري ١٢٩/٤، الطبعة الثالثة ١٤٢١-٢٠٠٠. الناشر مكتبة دار السلام في الرياض ودار الفيحاء في دمشق ورواه مسلم في كتاب الحج (باب: الترغيب في سكنى المدينة) صحيح مسلم ١٠٠٣/٢.

وبدأ أُصيل يصف له دروبها وأشجارها وثمارها، فتملك النبي الحنين لها،حتى بلغ مبلغ الحزن؛ فطلب منه أن يقف عن الاسترسال في وصفها قائلا له:

(حسبك يا أُصيل.. دع القلوب تقر.. لا تحزنا)[1].

وكذلك كان صحابته الكرام الذين هاجروا هجرتهم المباركة إلى المدينة، فكان سيدنا بلال بعد أن تقلع عنه الحمى التي أصابته يقول:

الا ليت شعري هل ابيتنّ ليلةً

بواد وحولي اذخر وجليل

وهل أرِدَن يوماً مياه مجنةٍ

وهل يبدون لي شامة وطفيل؟![2].

---

(١) اسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ١/١٢١-١٢٢ طبعة دار الشعب، القاهرة، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني١/٩٣ بتحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٤/١٢٩. وشامة وطفيل: جبلان.

والذي كان يشعر به النبي ﷺ وصحابته انما هو فطرة فطر الله الناس عليها، يستوي فيها الناس كلهم: عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم ...

الإسلام والعصبية القبلية

كانت العصبية القبلية سببا مهما من أسباب صد الناس عن صراط الله المستقيم، حين أرسل الله محمداﷺ. فقد كانت القبائل العربية تتبارى في الشجاعة والكرم والغيرة والنجدة وكل خلق كريم، ولا تخشى من شيء خشيتها أن تسبقها إلى تلك السجايا والمثل العالية قبيلة أخرى من القبائل. وننظر في المجتمع الذي بُعث فيه النبيﷺ، فنجد فيه ناسا كانوا يعرفون صدقه ﷺ، وانّه نبي الله بحق، ولم يمنعهم من الإيمان بنبوته إلا الحسد القبلي الذي سدّ عليهم طريق الهداية. ويدلنا على هذا ما كان من أبي جهل حين سأله الأخنس بن شريق عن رأيه فيما سمعه من آيات كان يتلوها رسول اللهﷺ بالليل في داره، فقال أبو جهل:

((ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا

تحاذينا على الركب، وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه))[1].

ولم يكن هذا رأي أبي جهل وحده، بل هو رأي الكثير من الكفار والمشركين الذين ناصبوا رسول اللهﷺ العداء.

وإذا كانت بنو هاشم وبنو المطلب قد دافعوا عن النبيﷺ، ولم يسلموه إلى المشركين، وانحازوا مع المسلمين، ودخلوا معهم شعب أبي طالب لمّا قاطعتهم القبائل، فإنّ ذلك لم يكن إلا بسبب العصبية القبلية. ولم يسلم اليهود مع علمهم أنّ محمدا رسول من الله بحق بسبب العصبية النسبية. فقد كانوا يتوقعون أن يبعث النبي المرتقب من بني إسرائيل، فلما بُعث من بني إسماعيل كذّبوه ولم يؤمنوا بدعوته، وانحازوا إلى المشركين، وتآمروا عليه.!

مفهوم القومية بين الجاهلية والإسلام

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني ٣٩٠/١، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: همام عبد الرحيم سعيد ومحمد بن عبد الله أبو صعيليك، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨، مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن.

ولقد اتجه الإسلام بالقومية اتجاها يختلف عن اتجاه الجاهلية. فقد كان مفهومها في الجاهلية: العصبية للأهل والعشيرة والقوم والدم؛ ونصرتهم في الحق والباطل كما قال الشاعر الجاهلي قريط بن أنيف:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا
لكن يسيرون أشتاتا إذا فزعوا
وينفرون إلى الغارات وحدانا

لذلك كثرت الحروب القبلية بينهم، فغيّر الإسلام هذا المفهوم فجعله متمثلا بالفكر الإسلامي: بعقيدته وشريعته. ونجد في المجتمع الإسلامي الأوّل ناسا لم يتشرّبوا هذا المعنى الإسلامي للقومية، فتعجبوا من حماسة غير العرب من الموالي مثل بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي من حماستهم لدعوة النبي العربي مع أنّهم غير عرب ولا يمتّون إليه بنسب، فلمّا علم النبي الكريم بذلك أمر بدعوة النّاس إلى المسجد، وخطب فيهم قائلا:

((أيّها النّاس، إنّ الرب واحد، والأب واحد، وإنّ الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنّما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي))[1].

وبهذا جعل النبيﷺ للقومية مفهوما آخر غير المفهوم الذي كان عليه القوم في الجاهلية: إنّها اللغة العربية لأنّ القرآن لا يُفهم إلا بها، والمجتهد لا يكون مجتهدا إلا إذا كان ملمّا بها: نحوا وبلاغة...لذلك لابد أن تكون دولة الإسلام عربية بهذا المفهوم.

وهذا لا يعني أن يتجرّد الإنسان من حبه لقومه، فإنّ هذا شيء فطر الله النّاس عليه، ولكنّه يعني أن يكون عادلا في احكامه على الأشياء كلّها: فلا ينصر قومه إذا كانوا ظالمين، بل يعمل على منعهم من الظلم، فحين سأل الصحابي (وائلة بن الأسقع) رسول اللهﷺ قائلا:

((يا رسول الله، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟))

فأجابه النبي الكريم بقوله:

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٨٩/٢. طبعة دمشق.

((لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم..))[1].

حكم الإسلام في العصبية

إذا اردنا معرفة الحكم الشرعي في اية قضية كانت من القضايا، فلا بد لنا ان نرجع إلى مصادر تشريعنا، وأولها القرآن، وثانيها السنة النبوية، فماذا يقول القرآن في أمر العصبية القومية؟

يقول الله ﷻ:

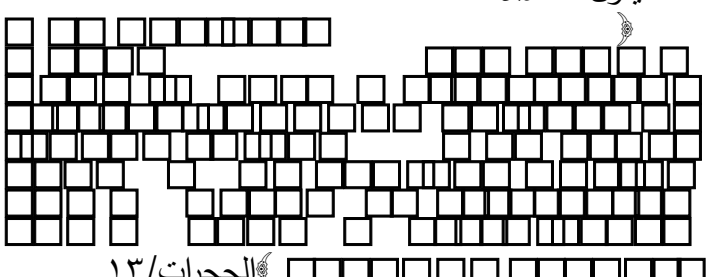

﴿الحجرات/١٣

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٦٩٢٦، المسند ٢٢٥/١٣ وإسناده صحيح، وابن ماجه في كتاب الفتن (باب: العصبية) حديث ٣٩٤٩. سنن ابن ماجه ١٣٠٢/٢.

والاية صريحة في مبدأ المساواة بين البشر؛ فان الله – سبحانه وتعالى– خلق الناس من أب واحد وأم واحدة: فهم متساوون في أصل الخلقة؛ فلا وجه للتفاخر بين الناس بالنسب أو اللون أو الجنس.

ويقول تعالى:

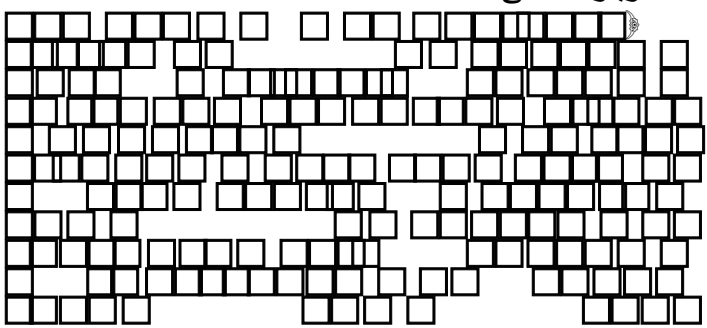

سورة النساء ١/

وحين نقرأ اسباب نزول بعض ايات القران، نرى أن الله–سبحانه– يؤكد على هذا الجانب، فقد روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود قال:

(مر الملأ من قريش بالنبيﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين؛ فقالوا: يا

محمد، رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟! أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟! اطردهم عنك؛ فلعلك إن طردتهم ان نتبعك؛ فنزلت هذه الاية:

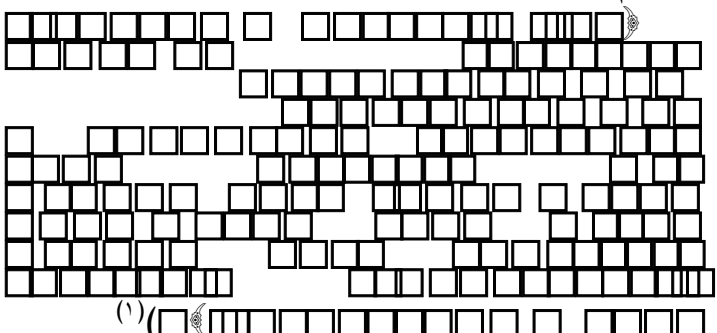

(١)

أما النبي ﷺ، استهداءا بمنهج القرآن الكريم، فقد طفر بالامة طفرة في محاربته للتعصب القومي لم يسبقه اليها سابق ولم يلحقه لاحق، وذلك في جانبين اثنين :

أولهما: التطبيق العملي لحقيقة المساواة بين العناصر والاجناس والالوان، فساوى بين العربي والأعجمي، والأسود والأبيض، والقوي والضعيف... فآخى بين المهاجرين

(١) تفسير الطبري ٢٠٠/٧. الطبعة الثانية ١٣٧٣-١٩٥٤ مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

والانصار، والضعفاء من غير العرب وكبار الصحابة من العرب: فآخى بين مولاه زيد بن حارثة وعمه حمزة بن عبد المطلب، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وآخى بين خارجة بن زيد وأبي بكر الصديق، وآخى بين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وآخى بين بلال الحبشي وأبي رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي[1]. ولم يكتف النبي الكريم بهذا، بل ساوى بين الناس كلهم في الوظائف، فجعل بلالا والياً على المدينة في وقت كان فيها كبار الصحابة، وجعل أسامة بن زيد قائدا على جيش فيه ابو بكر وعمر...هذه المساواة التي طبقها النبيﷺ هي التي جعلت الموالي من غير العرب يتسنمون –فيما بعد– أعلى المكانة في الفقه والعلم والسياسة...

ثانيهما: أحاديثه الشريفة التي وضعت حدا لأي تعصب قومي كان، من ذلك:

١– عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) لزيادة الاطلاع ينظر: السيرة النبوية لابن هشام مع شرح ابي ذر الخشني ١٧٢/٢-١٧٥

(من قتل تحت راية عميَّة، يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية)[١].

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(...ومن قاتل تحت راية عُميَّة، يغضب لعصبةٍ، او يدعو إلى عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية...)[٢].

٣- عن جبير بن مطعم ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال:

(ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية)[٣].

٤- عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردّي، فهو يُنزع بذنبه)[٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن...)حديث ١٨٥٠. صحيح مسلم ١٤٧٨/٣.

(٢) رواه مسلم في كتاب الامارة (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن...)حديث١٨٤٨ صحيح مسلم ٣/ ١٤٧٦.

(٣) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: في العصبية) ينظر: عون المعبود ١٨/١٤، والحديث حسن لغيره.

(٤) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: في العصبية) ينظر: عون المعبود ١٧/١٤.

٥- (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنّما هم فحم جهنّم، أو ليكوننّ أهون على الله من الجُعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إنّ الله قد أذهب عنكم عِبّيّة الجاهلية، إنّما هو مؤمن تقي وفاجر شقي. النّاس كلهم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب)[١].

٦- عن ابيّ بن كعبﷺ قال: قال رسول اللهﷺ:

(إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا)[٢].

٧- روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى الإمام مالك قال:

جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هذا، فقام إليه معاذ بن جبل بتلبيبه، ثم أتى النبيﷺ فأخبره بمقالته فقام النبيﷺ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب (باب: فضل الشام واليمن) حديث ٣٩٦٤. يُنظر: تحفة الأحوذي ١٠/٤٢١-٤٢٢.

(٢)رواه الطبراني برقم ٥٣٣. قال الهيثمي رجاله ثقات. ويُنظر: فيض القدير ١/٣٥٧، ومعنى فأعضوه: أي أسمعوه من الكلام ما يكره.

مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي أن الصلاة جامعة، وقال النبيﷺ: (يا أيها النّاس إنّ الرب واحد، والأب واحد وإنّ الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنّما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي).

ولاء المسلم

لا يكون ولاء المسلم الا لله ولرسوله وللمؤمنين قال تعالى:

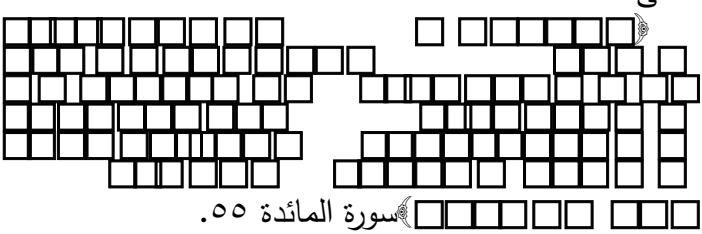

﴿سورة المائدة ٥٥.

فلا يكون الولاء للقوم ولا للأهل ولا للقبيلة ولا للجنس ولا للنسب ولا للمصاهرة إن استحبوا الكفر على الإيمان، فقد كان (أبو لهب) عماً للنبيﷺ، وهو في الذؤابة من قريش، ولما وقف موقفه ذاك من الإيمان بالله، وعدائه للنبيﷺ، نزلت (سورة اللهب) في تبيان خيبته وخسارته، وأنه ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾، يقرأ هذه السورة المسلم العربي

والفارسي والهندي وكل مسلم؛ فإذا كان الأمر هكذا بالنسبة لأبي لهب وهو عمُّ النبيﷺ فكيف بمن دونه؟!.

ونأتي إلى القرآن الحكيم، فنتلو قوله تعالى:

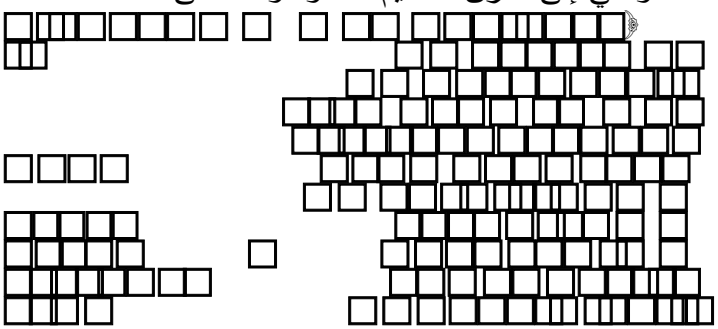

سورة التوبة ٢٣.

وقوله:

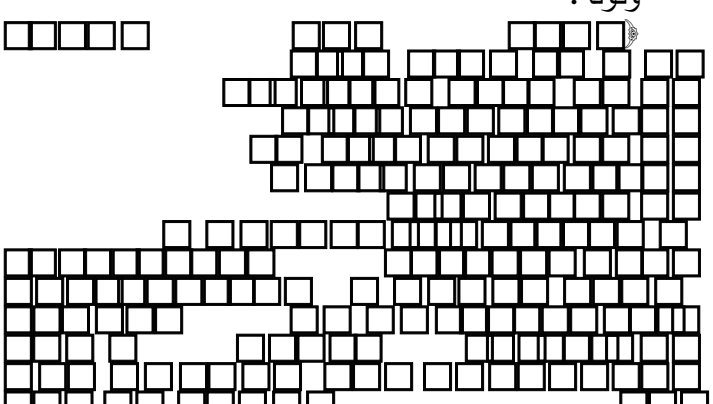

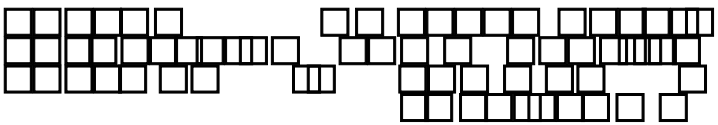
﴾ سورة التوبة/٢٤.

فإن قول الله تعالى: ﴿ 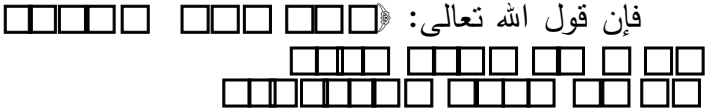 ﴾ فيه اشارة إلى رابطة الجنس والنسب.

وفي قوله: ﴿ 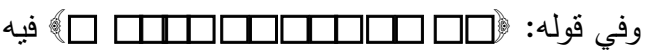 ﴾ فيه إشارة إلى رابطة المصاهرة.

وفي قوله: ﴿ 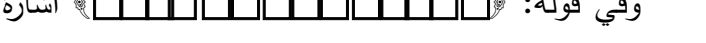 ﴾ اشارة إلى رابطة القومية او القبلية.

وفي قوله: ﴿ 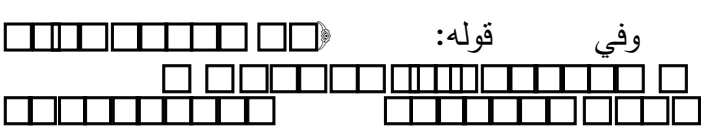 ﴾ اشارة إلى المصالح الاقتصادية.

وفي قوله: ﴿[illegible]﴾ اشارة إلى رابطة الأرض والوطنية.

وفي قوله: ﴿[illegible]﴾ اشارة إلى رابطة العقيدة.ورابطة العقيدة هذه، هي التي يجب على المسلم أن يكون ولاؤه لها. فإذا انساق وراء اية رابطة غيرها، فيصير قد نأى عن المنهج الذي يجب عليه أن يسير على وفقه.

وفي هذا المعنى ورد قول الله تعالى:

﴿[illegible]﴾ سورة المجادلة/٢٢.

وهكذا تحول المسلم في ولائه من تلك الولاءات إلى الولاء لله ورسوله؛ فصار الابن يقاتل أباه، والقريب يقاتل قريبه. ونجد النبيﷺ لم يهادن أقرباءه من قريش الذين كانوا وثنيين مشركين.

ولقد أدرك السياسيون الغربيون الذين عملوا في البلاد العربية والإسلامية، أن الإسلام له المكانة الأولى في قلوبهم، فلا يُقدّم شيء عليه، وانّ انتماء المسلم لا يكون إلا لهذا الدين على العكس من الرجل الغربي الذي يكون انتماؤه لوطنه. فهذا (ديلسبس) قنصل فرنسا العام في سوريا، كتب تقريرا إلى حكومته في ١٩٦٥/٨/١٩ جاء فيه:

(من أبرز الحقائق التي يلحظها من يريد درس هذه البلدان المكانة التي احتلها الدين في نفوس الناس، والسلطة التي له في حياة الناس. فالدين يظهر في كل مكان وفي كل أمر ففي المجتمع الشرقي يظهر أثر الدين في الأخلاق العامة، وفي اللغة وفي الأدب، وفي جميع المؤسسات الاجتماعية. والرجل الشرقي لا ينتمي إلى وطن ولد فيه – الشرقي ليس له وطن– بل إلى الدين الذي ولد فيه. وكما أنّ

الرجل في الغرب ينتمي إلى وطن، فإنّه في الشرق ينتمي إلى دين، وأمة الرجل الشرقي: هي مجموعة الناس الذين يعتنقون الدين ذاته الذي يعتنقه هو، وكل فرد خارج عن حظيرة الدين هو بالنسبة إليه رجل أجنبي غريب)[1].

وصية النبيﷺ لأمته في حجة الوداع

أوصى النبيﷺ أمته بوصايا قيمة في حجة الوداع، إن أخذت بها لم يكن للشيطان سبيل إليها. ومن تلك الوصايا: خوفه من أن يدب في الأمة دبيب العصبية الجاهلية؛ ذلك أنّ العصبية هذه تفرّق جمع المسلمين، وتشتت شملهم، وتقوّض صرح دولتهم؛ لذلك نجد النبيﷺ يتشدد في هذا الأمر، وتأتي خطبته الشريفة في حجة الوداع في أسلوب فيه أشد أنواع التحذير من تلك العصبيات الجاهلية، ويكفينا أن نعلم في خطبته هذه قوله:

---

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا تأليف الدكتور يوسف القرضاوي ص١٦٠.

(..لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)[1].

وما كان المسلم يخشى من شيء خشيته أن ينهج منهج الكفار، بعد أن أنقذه الله بهذا الدين، وجاءت أحاديثه الشريفة لتكون حدا فاصلا بين حقيقة هذا الدين ودعوات العصبية الجاهلية، فقال:

(يا أيها الناس، ألا إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الديات (باب: ٢) حديث ٦٨٦٨. فتح الباري ٢٣٧/١٢، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: لا ترجعوا بعدي كفارا...) صحيح مسلم ٨٢/١.

(٢) رواه الإمام أحمد عن أبي نضرة برقم ٢٣٣٨١. مسند الإمام أحمد ١٢/١٧.

كيف نشأت الدعوة الى القومية

هناك أسباب أدت إلى نشوء الدعوة إلى القومية في البلاد العربية، وسأقتصر هنا على ذكر سببين اثنين منها:

١- انبهر الناس بالتقدم الحضاري المادي الذي حققه الأوربيون في القرن التاسع عشر، وقد كانت البلاد العربية- آنذاك- تئن من وطأة التخلف والجهل. ونظر الناس إلى تلك العلوم والمعارف والمخترعات والصناعات التي حققها الغرب، فهالهم ما رأوه، وأخذ ذلك بألبابهم. وقد صاحب التقدم الصناعي انتشار الفكر القومي في أوربا؛ فاتجه من اتجه إلى تقليد الاوربيين في الدعوة إلى القومية، وبخاصة بعد أن فتحت المدارس الحكومية في ظل الاستعمار والانتداب والاحتلال والوصاية؛ إذ كانت تلك المدارس تعكس مناهج ونظم البلاد المستعمرة.!

لقد كانت الأمة العربية والإسلامية -آنذاك- متخلفة من ناحية التقدم الحضاري والصناعي، وكانت مغلوبة لا غالبة، وضعيفة وليست بالقوية، وقد قرر علماء الاجتماع أن الأمة المغلوبة تقلد الأمة الغالبة، والضعيفة تقلد القوية،وقد قال العلامة ابن خلدون:

(... ولذلك نرى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب: في ملبسه ومركبه وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله)[1].

وقد كان هذا سببا من اسباب ظهور الدعوات القومية في البلاد العربية والإسلامية.

٢- أما السبب الثاني الذي كانت له أهميته: فهو اضطهاد العنصر العربي من قبل دعاة القومية الاتراك، وبخاصة (حزب الاتحاد والترقي).

لقد عاش العرب والأتراك عددا من القرون إخوة متحابين متعاونين، مستظلين براية الإسلام التي جمعت بين القوميات -كلها- ولم تفرق بين العربي والتركي والكردي... وكيف تفرق وكلهم ربهم واحد، ونبيهم محمدﷺ، ويقفون في صلاتهم في صف واحد متساوين، متجهين إلى قبلة واحدة؟!

وسار الخلفاء العثمانيون هذه السيرة الطيبة، فكان هذا من أسباب قوة الأواصر بين القوميات كلها. وهكذا ظلت

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٤٧، الطبعة الرابعة، دار احياء التراث العربي، بيروت.

الدولة العثمانية واقفة وقفة الأبطال بوجه الغزو الصليبي للعالم الإسلامي طوال ثلاثة قرون او تزيد، فلم يتمكن الغربيون من احتلال الوطن العربي. ولم ينس الغربيون ذلك الجرح الغائر بانتزاع القسطنطينية منهم وانضوائها تحت لواء الإسلام، وصار اذان (الله أكبر) تصدح بها مآذنها. لذلك كثرت حملات التشهير غير المنصفة ضد الدولة العثمانية، من أجل تفتيت وحدتها، وإضعاف كيانها. وقد نجح هؤلاء حين شجعوا (حزب الاتحاد والترقي) بتبني الدعوة إلى القومية الطورانية العلمانية، مدعيا ان العنصر التركي أفضل من العناصر الأخرى، وأن حضارتهم أسبق من حضارة غيرهم. يقول الامير شكيب ارسلان –رحمه الله–:

(..وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية، يزعمون أن الترك هم من أقدم امم البسيطة وأعرقها مجداً، وأسبقها إلى

الحضارة، شعارهم: عدم التدين، وإهمال الجامعة الإسلامية: نحن أتراك، وكعبتنا طوران)[1].

ولم يكتف هؤلاء بتلك الادعاءات العريضة التي تؤدي إلى ردود فعل لدى القوميات الأخرى، بل قاموا باضطهاد العرب، فنالهم ما نالهم من الأذى؛ نتيجة سياسة التتريك التي اتبعها ذلك الحزب، بعد أن قام قادتهم بخلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩. والمعروف عن هذا الحزب أن أكثر أعضائه من الدونمة، وهم من اليهود الذين اخفوا معتقداتهم، وتسموا بأسماء إسلامية، وتظاهروا بدخولهم في الإسلام؛ ليتمكنوا من الكيد به. وهكذا انخرطوا في سلك الشرطة، وفي مراكز مهمة في الحكومة، بل استطاعوا حتى النفاذ في قصر السلطان عبد الحميد، وكانت سياستهم واضحة في عدائهم للإسلام وللخلافة العثمانية، تلك السياسة

(١) حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب ارسلان ١/١٥٨ -١٥٩.

التي عرفت بالسياسة الطورانية[1]. واشتد الظلم على العرب في جوانب عدة، حتى صار التعليم باللغة التركية في مرافق الدولة كلها، بل حتى اللغة العربية صارت تدرس باللغة التركية، وفوق ذلك قللوا من حصص تلك الدروس بالعربية.

أما الموظفون من غير العرب في البلاد العربية فقد كثروا، وأصاب الغبن رجال العرب في وظائف الدولة الرئيسة وغير الرئيسة غبناً كبيراً. وكان (حزب الاتحاد والترقي) ومن سار على نهجه يصفون العرب بصفات مهينة فيقولون مثلا (بيس عرب) أي العربي النجس و(جنكنه عرب) أي العربي الغجري، ومازال المعمِّرون من أهل الموصل يذكرون ذلك. وقد بدأ هذا التحقير للعرب حتى قبل إعلان الدستور، وازداد بعد إعلانه، فقد اخرج ثلاثة عشر متصرفا عربيا ، وحل

(١) يراد بالسياسة الطورانية: (الرجوع إلى خصائص الأسلاف الطورانيين (من سكان التركستان في أواسط اسيا) قبل دخول الترك في الإسلام. ولهذا فقد رفعوا شعار (الذئب الأغبر) الذي كان معبود الأتراك في جاهليتهم هذه، وبدأوا–في الوقت نفسه– بفرض اللغة التركية وحدها على جميع شعوب الدولة العثمانية، ومحاولة صبغها بالثقافة التركية).
ينظر: جذور الفكر القومي والعلماني للدكتور: عدنان محمد زرزور ص٥١.

محلهم اتراك((ولقد كان في وزارة الخارجية ١٢ موظفا عربياً من أصل ٦٠٠، فاخرجوا جميعهم بحجة التنسيق، ولم يعين الا عربي واحد. ولقد أصبح موظفو وزارة المالية بعد التنسيق ١١١ تركيا و١٣ يهوديا، وعشرة من الأرمن، وأربعة من الروم، وواحد من العرب...))[١].

إن هذه المواقف – وغيرها كثير– هي التي جعلت ردة فعل لدى الشباب العربي للدعوة إلى القومية العربية، والتذكير بأمجاد العرب، وطالبوا بأن يكون التدريس باللغة العربية، وكذلك في المحاكم ودوائر الدولة، وأن تعطى لهم الحرية في انتخاب نوابهم.. وما الجمعيات العربية التي نشأت –آنذاك– الا كردٍّ فعل لما اتبعه حزب (الاتحاد والترقي). ونشير هنا إلى ان هذه الجمعيات العربية كانت قوية الجذور بالإسلام، فلم تتعرض للإسلام بالإساءة، ولم ترفع شعارات تناهض به هذا الدين، ولم تدع إلى الاعتزاز بالتاريخ الجاهلي والتفاخر به.. فقد كانت أهدافها العامة: رفض سياسة التتريك التي

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة تأليف: محمد عزة دروزة ص٣٠١. الطبعة الثانية المكتبة العصرية، بيروت

فيها تجاوزات على العرب والإسلام. وإذا كان عدد ليس بالقليل من العرب دخل أول الأمر في حزب (الاتحاد والترقي)، ولكن سرعان ما انسحب الواحد منهم بعد الآخر، بعد أن اتضحت أهداف وأساليب هذا الحزب، ووقفوا موقف المعارضة لهم.

وهكذا نجد الدعوات الاولى للقومية تبتغي جمع شمل العرب في دولة واحدة ورفع الغبن عنهم. يقول الكاتب الألماني (باول شمتز):

(مثلت القومية العربية دور القومية الإسلامية، فهي عربية في ظاهرها، إسلامية في مخبرها وأهدافها. ويتجلى ذلك واضحا في معارضتها الشديدة لأوربا وللمسيحية)[1].

لكن هذه الدعوات لم تنجُ من المؤامرات التي حيكت لها في الغرب، وبخاصة من الانكليز، من أجل الانحراف بتيار القومية العربية عن مسارها الاول؛ لتصير خادمة للأهداف البريطانية. فهذا (الكولونيل كليتون) قام سنة ١٩١٦ بمهمة

(١) الإسلام قوة الغد العالمية تأليف: باول شمتز ص١٤٣، نقله إلى العربية الدكتور محمد شامة، الطبعة الاولى ١٣٩٤-١٩٧٤ مطبعة الحضارة العربية، القاهرة.

كبيرة: وهي تأسيس المكتب العربي البريطاني في القاهرة، وقد قام المكتب بعمله مع عدد من الضباط الانكليز؛ لينحرف بحركة القومية العربية، حتى تصير خادمة للأهداف الحربية البريطانية[١].

اما المفكر الصهيوني (ماكس نوردو)، فقد أشار قبل ذلك إلى ضرورة استغلال القومية العربية لضرب العرب بحكام الإمبراطورية العثمانية، والقضاء على الاثنين معاً[٢].

وهكذا استطاع المستعمرون ان يفرغوا الدعوات القومية من أهدافها الأولى، فظهرت الدعوة إلى القومية المنفصلة عن التراث الإسلامي، والدعوة إلى القومية العلمانية على وفق المنهج الغربي.

لقد وقعت الحرب العالمية الأولى، وتقسمت البلاد العربية بين(انكلترا) و (فرنسا)، ووجدت القوميات–آنذاك– تربة خصبة لنشر دعوتها، وكثرت الدعوات، فصارت كل

---

(١) ينظر: لورنس العرب على خطا هرتزل (تقارير لورنس السرية) تأليف: زهدي الفاتح ص٦٤، الطبعة الاولى ١٣٩٠-١٩٧١،نقلا عن كتاب (الوقائع السرية في حياة لورنس العرب) ص٤٨-٤٩.

(٢) ينظر: لورنس العرب على خطا هرتزل ص٦٤-٦٥.

قومية تدعو لقوميتها بإحياء تاريخها قبل الإسلام، ومن هذه القوميات: القومية العربية، وقد انقسم دعاتها على قسمين:

الأول: دعاة القومية المحافظون الذين تحدثنا عنهم، وقد كانوا لا يفرقون بين الإسلام والعروبة، وكل ما في الأمر: أنهم يريدون جمع العرب الذين تقترب مساكنهم في دولة واحدة، وكان همهم الأول منصبا على تحرير البلاد من المستعمرين، وكانوا لا يفرقون بين الإسلام والعرب. وظل هذا الفكر ساريا في البلاد العربية مدة ليست بالقصيرة من الزمن: فقد كان أهل العراق –مثلا– قبل قرن من الزمان لا يفرقون بين القومية والعروبة والإسلام، إذ كان مفهومها عندهم متقاربا، وهكذا في المغرب العربي والجزائر، فكانوا لا يفرقون بين المسلم والعربي، مقتدين بما كان عليه الناس في العصور الإسلامية الأولى [1]. وقد عبر عن هذا المعنى خير تعبير الشاعر محمود غنيم –رحمه الله– فقال:

---

(١) ذكر ابو جعفر الطبري في تاريخه في حوادث سنة ١١٠هـ، ان دخول الناس في الإسلام في (سمرقند) قد كثر، ووضعت الجزية عنهم؛ فقلّ الخراج :(فجاء البعض إلى الاشرس بن عبد الله المسلمي (والي خراسان) وهم يقولون: ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس عرباً..)؟

هي العروبـة لفظ إن نطقت به

فالشرق والضاد والإسلام معناه

وهذا المفهوم الذي ذكرته للقومية والعروبة، يختلف عن المفهوم الذي كان سائدا في (لبنان) و (سوريا) و (الشام)..

الثاني: دعاة القومية من المتأثرين بالفكر الغربي، فكانوا يدعون إلى القومية بالفكر نفسه الذي يدعو اليه غلاة دعاة القومية في الغرب، من غير أن يولوا اهتماما بالفكر الإسلامي، فان دعوتهم لم تقف عند حدود الاعتزاز بالقوم، بل تعدتها لتتخذ العلمانية منهجا لها تسير على وفقه لا تتجاوزه، وهذا واضح من تصريحات كثير من قادة الاحزاب القومية في البلاد العربية؛ فقد أعلنوا على رؤوس الأشهاد دعوتهم إلى العلمانية (اللادينية)، لتكون بديلة عن الرابطة الإسلامية التي تجمع القوميات كلها، وأرادت أن يكون الدين محصورا بين جدران المساجد لا يتعداها، وهو نفس الفكر الغربي العلماني؛ ذلك لان نشأة الدعوة الى القومية ظل

ووجه الشاهد في هذا النص: أن الناس آنئذ كانوا يسمون المسلمين عربا، وكل من أسلم منهم يسمى عربياً

محصورا بأناس تلقوا تعليمهم في مدارس الارساليات التبشيرية، وقد عرف هذا الاتجاه اول ما عرف في بلاد الشام على ايدي النصارى، ثم انتقل بعد ذلك إلى عدد من البلاد العربية. ومن هنا وقع الصدام بين الفكر القومي العلماني بشتى اتجاهاته وبين الفكر الإسلامي، وقد خسر الفكر القومي في هذا الصراع بعد أن احرج بشتى اتجاهاته، ولم يستطع الوقوف امام من يحملون الفكر الإسلامي ويدعون اليه.

تجريد العروبة من الإسلام

جرت محاولات كثيرة من علمانيي دعاة القومية العربية ممن تأثر بالفكر الغربي والنفوذ الاستعماري لتجريد العروبة من الإسلام والفصل بينهما؛ ليكون لكل منهما منهجه الخاص به.

وحين نتأمل بالشريعة الإسلامية، نرى ارتباطا عميق الجذور بين الإسلام والعروبة لم ينفصل في غضون القرون

الخمسة عشر؛ ذلك أن العروبة تمثل جزءا من أجزاء الاسلام إذ الإسلام هو الذي وحد العرب تحت رايته، وجعل منهم قوة عظيمة أخرجت الأمم من الظلمات إلى النور، وقد حافظ (الإسلام) على عروبة البلاد التي غزيت، فوقف بوجه الحروب الصليبية، وردها على أعقابها تجر أذيال الخيبة والهزيمة. وانتصر الإسلام هذا الانتصار، حتى بعد أن تكوّن للصليبيين أربع امارات صليبية، في وقت وصلت البلاد العربية إلى حالة من الضعف والوهن بسبب تفرق حكام المسلمين، فجاء صلاح الدين الأيوبي المسلم الكردي، وخلص البلاد وبيت المقدس الذي تشد اليه الرحال باسم الإسلام، وليس باسم القومية العربية. وهكذا الأمر في الاجتياح المغولي التتري للبلاد العربية، فإن الذي وقف بوجههم هم المماليك، وكانت صرخاتهم في الحروب: واإسلاماه! لقد قاتلوهم باسم الإسلام لا باسم غيره.!

ولست أدري، هل علم أصحاب هذه الدعوات في البلاد العربية حقيقة الخطورة التي ترتبت وتترتبُ على الأخذ بالقومية المجردة عن الإسلام أم لا؟

فإن لم يعلموا ذلك، فليستمعوا إلى المفكرين من غير العرب ومن غير المسلمين.. أولئك الذين رفعوا أصواتهم محذرين الأمة من مغبة الأخذ بالقومية المجردة عن الإسلام؛ ذلك لان الاخذ بها لا يبني أمة ولا ينهض بها فقال (الفريد كانتول سميث):

(إن القومية المجردة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء، وما لم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوجوه، فلن تثمر الجهود، وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ذلك)[1].

ويحق لكل منصف ان يقول –بعد ذلك–: كم أساء إلى أُمته ويسئ من يحاول تجريد العروبة عن الإسلام؟!.

مناهج دعاة القومية وأهدافهم

تعددت مناهج دعاة القومية، كما تعددت أهدافهم، لكن هناك عامل مشترك بين منهاج وأهداف أكثر دعاة القومية، منها ما يأتي

(١) معلمة الإسلام تأليف: انور الجندي ٢٢١/٢ الطبعة الثانية ١٤١١-١٩٩١، دار الصحوة، القاهرة.

١- يقدم كثير من دعاة القومية رابطة قوميتهم على الرابطة الإسلامية: فهناك من يفضل العربي غير المسلم على المسلم غير العربي! ونحن المسلمين نعتقد اعتقادا جازما أن رابطة اخوة الإسلام أقوى من أي رابطة كانت، لان الله ﷻ يقول:

﴿ ﴾

سورة الحجرات/١٠، ولان النبي ﷺ يقول: (المسلم أخو المسلم)[١].

ونهى القرآن الحكيم أن يوالي المسلم أباه أو اخاه إن استحب الكفر على الايمان فقال تعالى:

﴿ 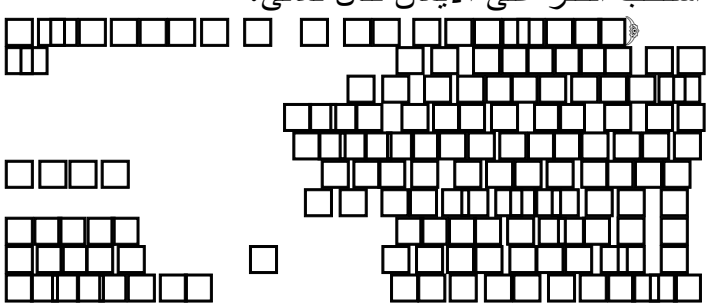 ﴾

(١) رواه البخاري حديث ٢٤٤٢ ومسلم ٢٥٨٢ .

سورة التوبة/٢٣

ويشير القرآن الحكيم إلى هذا المعنى فيقول:

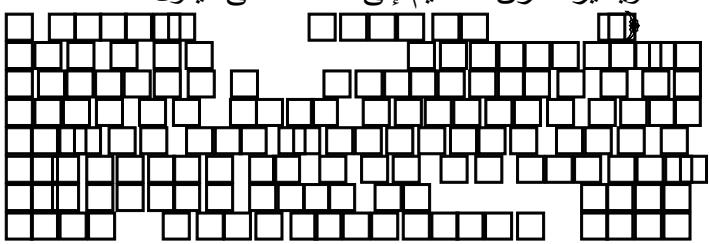
سورة المجادلة/٣٢

لذلك صار الابن يقاتل أباه، والقريب يقاتل قريبه: ففي غزوة بدر قتل ابو عبيدة عامر بن الجراح اباه، وقتل عمر ابن الخطاب خاله العاص بن هشام، وهمّ ابو بكر الصديق بقتل ابنه عبد الرحمن –وكان آنئذ مشركا– لولا أن النبيﷺ قال لأبي بكر: متِّعنا بحياتك يا ابا بكر.

٢– يتخذ القوميون العلمانيون العلمانية منهجا لهم، فيعزلون الدين عن الدولة والمجتمع، ويحصرونه بين جدران المساجد ، وينظرون إلى الإسلام نظرتهم إلى المسيحية التي يدين بها الغرب الان سواء بسواء. وربما جهل هؤلاء البون الشاسع بين الإسلام ومسيحية الغرب في مجال التشريع: فان

الإنجيل المتداول بين الناس الان ليس فيه أحكام تنظم حياة الناس، وقد اقتصر على ذكر الصلاة والمواعظ والترغيب والترهيب.. وليس كذلك الإسلام، فانه دين ينظم كل ما يتعلق بحياة الناس: الدينية والدنيوية من الاقتصادية والاجتماعية والسياسية...

٣- لم يقف القوميون عند الدعوة إلى علمانيتهم، بل جنَّدوا أنفسهم لمحاربة الإسلام، ولكل من يريد تحكيم الشريعة الإسلامية في المجتمع. ومن أسباب ذلك: أن اساطين الدعوات القومية كانوا من غير المسلمين، فلا تتوقع منهم غير ذلك. فهذا (انطوان سعادة) يدعو إلى قومية سورية، وهكذا (سلامة موسى) يدعو إلى قومية مصرية، وهذا (جورج حبش) يدعو إلى القومية العربية... فهل يوالي هؤلاء الإسلام ورسالته ودعاته؟!

٤- يعمل القوميون المتأثرون بالفكر الغربي على تفضيل قوميتهم على القوميات الأخرى، بل ويستعلون بقوميتهم على غيرها من القوميات، وحين ذاك يكون ظالما للقوميات

الأخرى، فيعطي لأهل قوميته ما لا يعطيه للقوميات الأخرى.
يقول العلامة ابو الأعلى المودودي:

(فمعنى القومية: هو أن يفضل القوميون في كل امة قوميتهم على جميع القوميات الأخرى، وأن يكون هذا القومي قوميا ظالما عدوانيا؛ لان من مستلزمات القومية: أن يفرق على الأقل بين القومي وغير القومي، فيحفظ لاهل امته أكثر الامتيازات، كما يقوم بالحفاظ على المثل التاريخية والعصبية التي تقوم عليها قوميته، ويرعى وينمي ما بداخله من عواطف الفخر والتفاخر القومي، فهو لن يشرك معه أهل القوميات الأخرى في أي مجال من مجالات الحياة على اسس متساوية؛ ولانه من الواجب ان تتمتع أمته بفوائد ومنافع أكثر من الأمم الأخرى؛ فان قلبه يعمى عن العدل والإنصاف..)[1].

(١) الامة الإسلامية وقضية القومية تأليف: أبي الأعلى المودودي ص١٥٣-١٥٥ نقلا عن القومية بين النظرية والتطبيق تأليف مصطفى محمد طحان ص٣٣٣-٣٣٥.

الغرب والدعوات القومية

وكان للجهود الأمريكية في تشجيع الدعوة إلى القومية الأثر الكبير في نشوئها، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر. يقول جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب):

(إن قصة الحركة القومية بدأت في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بانشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية)[١].

ولم يتبلور العمل المنظم في الدعوة إلى القومية الا بعد ان تأسست جمعية سرية في الكلية السورية بعد انشاء الجمعية الادبية السابقة بربع قرن: أي في سنة ١٨٧٥. وقد أخذت هذه الحركة طورا جديدا في عملها بعد أن جعلت لها علاقة بالحركة الماسونية التي أخذت محافلها بالانتشار في الدولة العثمانية. يقول جورج انطونيوس:

(يرجع اول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ حين الف خمسة شبان من الذين درسوا في

---

(١) يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس ص٧١ ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور احسان عباس. الطبعة السابعة. بيروت.

الكلية السورية الانجيلية (التي سميت فيما بعد باسم الجامعة الامريكية) جمعية سرية وكانوا جميعا نصارى)[1].

ولم تمض غير سنوات ليست بالكثيرة، حتى صار ناس من المسلمين يحملون هذا الفكر. وهكذا انتقلت الدعوة إلى القومية من النصارى إلى المسلمين، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يقول جورج انطونيوس:

(ولذلك انتقلت هذه الآراء التي بذرها النصارى في البداية، وأصبحت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تجد تربة صالحة للنمو بين المسلمين)[2].

وقد بذل الغرب جهوده الجهيدة لربط المسلم بالقوميات التي سبقت الإسلام في الزمن: ففي لبنان كثرت الدعوات إلى (الفينيقية) مدعين أن اللبنانيين لا ينتمون إلى العرب، بل ينتمون إلى حضارة البحر المتوسط.

وفي مصر نشطت الدعوة إلى (الحضارة الفرعونية)، وانتشر اسم (رمسيس) و (ابو الهول)، وقد اتخذ (ابو الهول)

---

(١) يقظة العرب ص١٤٩.

(٢) يقظة العرب ص١٦٨

شعارا لمصر. وما ان بدأت مصر بالتحضير لاقامة السد العالي حتى قامت اليونسكو بضجة اعلامية لانقاذ معبد (ابي سنبل) الفرعوني ونقل تمثال (رمسيس)–فرعون مصر– إلى القاهرة، وصار شعار(مصر للمصريين) يرفع هنا وهناك من كبار الادباء وأصحاب الاسماء اللامعة.

وفي تركيا رفع شعار(تركيا للأتراك)، حتى صار الكماليون يقولون: (نريد أن نبني اسلاما تركيا يصبح ملكا لنا، وجزءاً من مجتمعنا الجديد، على نحو الكنيسة الانجليكانية التي هي مسيحية على نمط أنجليزي)[1].

ولا ريب أن هذه هي علة اهتمام الغرب بالاثار في البلاد العربية والإسلامية خاصة؛ ليكون ارتباط المسلمين بهذه الاثار التي لا علاقة لها بالإسلام. لذلك تبرعت مؤسسة مهمة من مؤسسات اليهود (مؤسسة روكفلر) بعشرة ملايين

(١) الإسلام والحضارة الغربية تأليف: الدكتور محمد محمد حسين ص١٧٨ الطبعة التاسعة ١٤١٣/١٩٩٣، مطبعة المدني، القاهرة.

دولار، من أجل انشاء متحف يعنى بالاثار الفرعونية، ومعهد لتخريج رجال الاثار[1].

وفي إيران عمل (الصفويون) ومن بعدهم (الحكم البهلوي) على إضعاف العلاقة بالعالم الإسلامي، فتأسست أكاديمية مهمتها التخلص من المفردات العربية الموجودة في اللغة الفارسية، وظهر الاهتمام بـ (زرادشت) ومذهبه من جديد، وثارت قوميات هنا وهناك في إيران مثل: (البلوش) و (العرب) و (الأكراد).

وفي العراق برزت الدعوة إلى القومية العربية والكردية والتركمانية، وتعصب كل صاحب قومية لقوميته، وربما يكون هذا –مستقبلا– سببا من أسباب سلخ المنطقة الكردية من العراق لتكون اقليماً مستقلا. ولا شك أن هذا –كله– من أجل قطع صلة المسلمين بإسلامهم، وربطهم بعقائد وديانات جاهلية؛ ليتمكن الغرب من استعباد المسلمين وإذلالهم.

لقد كان للغرب الأثر الكبير في نشوء هذه الدعوات؛ إذ كانت البعثات الإنجيلية الغربية تعمل عملها هنا وهناك، فوق

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص١٥٩.

الجهود التي كان يبذلها ساسة الغرب من أجل ان تحل الدعوات القومية والوطنية محل الدعوة إلى الإسلام. يقول(جورج انطونيوس) –وهو نصراني ما روني–:

(وهذه الحركة القومية هي نتيجة من نتائج البعثات التبشيرية الغربية التي يرجع وجودها في بلاد الشام إلى عهد إبراهيم باشا الذي اتاح للمدارس الفرنسية والأمريكية بالعمل؛ واللتين قدَّر لهما أن تحتضنا البعث العربي وترعياه[1].

وقد أشار إلى هذه القضية –أيضا– رجل المخابرات البريطاني (لورنس) وقد كان يسمى (لورنس العرب) فقال:

(وأخذت أفكر طيلة الطريق إلى سوريا وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني المعتقدات الدينية؟ وبمعنى أوضح: هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟)[2].

---

(١) يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس ص٩٧، والقومية بين النظرية والتطبيق ص٣٢٣.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية العدد ٤٣٣ سنة ١٩٧٩.

لقد ثبت أن الدعوات القومية العلمانية التي انطلقت في البلاد العربية والإسلامية كانت مؤامرة على الأمة المسلمة، استهدفت تمزيق الوحدة الإسلامية بأجزائها السياسية والاجتماعية والفكرية... وهذا ما صرح به من عرفوا بعدائهم للإسلام ككبير المبشرين البروتستانت (زويمر)، فقد قال:

(إن اول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو ايجاد القوميات)[1].

وهذا ما قامت به الإرساليات التبشيرية في بعض البلدان العربية –وبخاصة في بيروت–فقد رفعت شعار الدعوة إلى القومية العربية، من أجل تمزيق تلك الوحدة بين العرب والترك.

وهناك علامات استفهام كثيرة شغلت أذهان كثير من دعاة القومية، ولم يستطيعوا أن يجدوا جوابا شافيا لها ومن تلك: لماذا كان الدعاة الأول للقومية العربية من المتأثرين بالفكر الغربي من المسيحيين العرب وبخاصة من لبنان من

(١) معلمة الإسلام تأليف: أنور الجندي٢/٢١٧.

أمثال (بطرس البستاني) و(ابراهيم اليازجي) و (فارس الشدياق) و (أديب اسحق) و(سليم تقلا) و...!

ولماذا اهتمت فرنسا بالمؤتمر الأول لدعاة القومية الذي انعقد في فرنسا واحتضنته، مع أن الفرنسيين معروفون بعدائهم لامتنا؟

ولماذا اهتمت بريطانيا بدعاة القومية وأيدتهم وأمدتهم بالدعم المالي والمعنوي ابان نشأة الدعوة القومية، مع أن عداء الانكليز لامتنا صار أوضح من الشمس في رابعة النهار؟

ولماذا كان نشوء الدعوة إلى القومية العربية في المؤسسات التبشيرية مثل الكلية السورية الإنجيلية التي سميت –فيما بعد– باسم الجامعة الأمريكية، ولم تنشأ في المؤسسات المعروفة بحبها وإخلاصها لهذه الأمة.

ولماذا كان الجاسوس الانجليزي (لورنس) هو الذي خطط للثورة العربية؟

ولماذا صار القنصل الفرنسي في بيروت عضوا في حركة القوميين العرب؟[1].

إن هذه الأسئلة –وغيرها كثير– لتضع الشك بعد الشك في نوايا دعاة القومية العلمانية من المتأثرين بالفكر الغربي.

(١) لزيادة الاطلاع ينظر: القومية والغزو الفكري تأليف: محمد جلال كشك في صفحات ٢٨٣و٢٨٥ و ٢٨٦ و٣٠٤ الناشر مكتبة الامل، الكويت.

لماذا اختار الله العرب لحمل رسالة الإسلام

أراد الله ﷻ ان تكون رسالة الإسلام خاتمة الرسالات، وشريعته خاتمة الشرائع، وأن تكون إلى الناس –كلهم– عربهم وعجمهم، لا تنسخ ولا تبدل إلى قيام الساعة، وأن تلبي حاجات كل الأمم والشعوب؛ فأرسل محمداﷺ –وهو من العرب– لما يعلمه –سبحانه– من اتصافهم بميزات كريمة تفقدها غيرها من الامم، مع وجود استعداد لحمل هذه الرسالة تؤهلهم لنشرها في الافاق و﴿ □ □□□ □□□□□□□□□
□□□□□□ □□□□□□□□
□□□□ □ □□□□□□□□﴾ سورة الانعام /١٢٤

لقد كان العربي يشعر بحقيقة العزة التي تنطوي عليها جوانحه، وبالنفسية العالية التي يسمو بها فيفرض نفسه على من حوله. وربما وصل به هذا الشعور إلى حد التطرف كما قال قائلهم:

لو كان في الالف منا واحد فدعوا
من فارس؟ خالهم أياه يعنونا

وكما قال طرفة بن العبد صاحب المعلقة:

إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت انني
عُنيت فلم أكسل ولم اتبلد

وكل من تكون نفسيته هكذا يتحلى بمكارم الأخلاق من الصدق والشجاعة والأمانة والغيرة والكرم والوفاء بالعهد..

ومن تلك الصفات التي كانت سجية للعرب: صفة الكرم، ولم تكن خاصة بالأغنياء منهم، بل كانت تشمل حتى الفقراء، وقد قال قائلهم:

نصبوا بمدرجة الطريق قدورهم

يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه

حب القرى حطبا على النيران

ومن صفاتهم التي صارت مضرب الأمثال: غيرتهم على الاعراض. وبلغ التطرف مبلغه في بعض القبائل، حتى صاروا يئدون البنات خشية العار.

ومما امتاز به العرب: نخوتهم، فإذا دخل أحد في جوارهم يدافعون عنه ولا يسلمونه–ولو أدى إلى فناء كثير منهم–. فهذا (المطعم بن عدي) –وقد كان مشركا– يدخل النبي الكريم في جواره بعد أن عاد من الطائف التي لم تكتف بعدم الإيمان بدعوته، بل أساءت إلى شخصه الكريم. ويحمل

(المطعم) مع بنيه السلاح ليقاتلوا من يريد الإساءة إلى النبي الذي دخل في جواره. إنّ هذه النخوة وهذا الجوار لا نجد لهما مثيلا في أية أمة كانت من الأمم آنذاك. ولو أنّ صاحب دعوة ظهر في فارس أو الروم، وكانت دعوته لا يتقبلها كسرى أو قيصر، لأخذ صاحب الدعوة من بين أهله وسُجن، أو ضُربت عنقه وانتهى خبره. يقول الإمام ابن تيمية–رحمه الله–:

(وسبب هذا الفضل–والله أعلم– ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وذلك أنّ الفضل:إمّا بالعلم النافع، وإمّا بالعمل الصالح، والعلم له مبدأ: وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم...والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعاني...وأمّا العمل، فإنّ مبناه على الأخلاق: وهي الغرائز المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من

غيرهم. فهم أقرب للسخاء، والحلم، والشجاعة، والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة..)[١]

وقال محمود شكري الآلوسي:

(والحاصل أنّ العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما، وأطلقهم ألسنة، وأوفرهم أفهاما، استتبع ذلك لهم كل فضيلة، وأورثهم كل منقبة جليلة، فإنّ العقل المشرق للإنسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة والذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخير وإصابة الظن والفراسة والزكافة والكهانة والعرافة والإلهام ودقة النظر والرأي والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة وسائر الأخلاق المحمودة والأعمال الممدوحة)[٢].

وقال لوثروب ستودارد:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية بتحقيق محمد حامد الفقي ص١٦٠-١٦١ الناشر: دار المعرفة، بيروت.

(٢) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب للآلوسي. وانظر: العرب من هم وما قيل عنهم تأليف عمر رضا كحالة ص٧٨-٧٩.

(كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق، سليمة الطباع، نيرة السجايا، مقاديم، يركبون كل صعب، تحركهم روح الرسالة، بغاية غاياتها، وتبعث فيهم عزما شديدا وغيرة متوقدة)[1].

وإذا كان العصر الذي سبق مبعث النبيﷺ يسمى بالعصر الجاهلي، فإنّ الجاهلية هذه لم تكن ضد العلم، بل كانت من الجهل بالدين الحق، والجهل الذي هو ضد الحلم والعقل في بعض الأحيان؛

ولا يظننّ أحد أنّا حين نتحدث في العصر الجاهلي ننزهه عن مثالب ومساوئ كانت فيه، فإنّ مع هذه السمات العالية، نجد بجانبها صفات سيئة انتشرت فيما بينهم، ومن ذلك: عبادة الأصنام والأوثان، والتعامل الربوي، وأكل القوي فيهم حقوق الضعيف، والحرب لأتفه الأسباب التي تدوم سنوات طوالاً تأكل الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل، وكذلك ما عُرفوا به من اللدد عند الخصام، والعصيان، وعدم الطاعة، والمكابرة، والمعاندة...ومع ذلك نجد العرب-آنذاك-

(١) العرب ص٨٠.

خير أهل الأرض لاتصافهم بصفات بوأتهم تلك المنزلة الرفيعة، وذلك بما يملكونه من صفات حميدة لا يملكها غيرهم. يقول الإمام ابن تيمية وهو يتحدث عن العرب عند مبعث النبيﷺ:

(كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطّلة عن فعله، ليس عندهم علم منزّل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي...فلمّا بعث الله محمداﷺ بالهدى–الذي ما جعل الله في الأرض ولا يجعل أعظم منه قدرا– وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية، والظلمات الكفرية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتهم. فلما تلقّوا عنه ذلك الهدى العظيم، زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله، فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة؛ فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي انزل الله إليهم...فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

أفضل خلق الله بعد الأنبياء، وصار أفضل الناس بعدهم: من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم...)[1].

حب العرب

وردت أحاديث كثيرة عن النبيﷺ يدعو فيها إلى حب العرب. وإذا كان قسم من تلك الأحاديث ضعيفة، فإنّ ضعفها يتقوى إذا جاء من طرق أخرى، فمنها ما رواه سلمان الفارسيرضي الله عنه قال: قال لي رسول اللهﷺ:

((يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك))؛ فقلت: يا رسول الله، وكيف أبغضك وبك هدانا اللهﷻ؟ قال: ((تبغض العرب فتبغضني)))[2].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص١٦١-١٦٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم ٢٣٦٢١ مسند الإمام أحمد ٩٣/١٧ وإسناده حسن، والترمذي في كتاب المناقب (باب: مناقب في فضل العرب)، وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد. تحفة الأحوذي ٣٩٦/١٠. ويعلّق المباركفوري على هذا الحديث فيقول: (..والحاصل: أنّ بغض العرب قد يصير سببا لبغض سيد الخلق؛ فالحذر الحذر؛ كيلا يقع الخطر) ٣٩٦/١٠.
ورواه الحاكم وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجاه. المستدرك على الصحيحين ٩٧/٤، حديث ٢٥٩٣/٦٩٩٥.

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال: قال رسول اللهﷺ:

(..فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي ابغضهم)[١].

وقالﷺ:

(أحبوا العرب وبقاءهم، فإن بقاءهم نور في الإسلام، وإن فناءهم ظلمة في الإسلام)[٢]

واستهداءاً بما قاله النبيﷺ، نجد العلماء يشيدون بالعرب، ويدعون إلى حبهم، ذاكرين أن من أحب النبي العربي أحب العرب، فقال أبو منصور الثعالبي:

(من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداًﷺ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها، وصرف همته

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٨٣/٤، حديث٦٩٥٣/٢٥٥١.

(٢) رواه ابو الشيخ في الثواب عن ابي هريرة. ينظر: جامع الاحاديث للسيوطي ١٠٧/١ حديث ٥٦٨، وأخبار اصبهان لابي نعيم الاصبهاني،باب الهاء: الهذيل بن عبد الله الصبي حديث ٢٧٢٥ و ٣٤٥١.

اليها، ومن هداه الله تعالى للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وأتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين)[1].

القرآن والعرب

شاء الله ﷻ ان يكون خاتم الأنبياء والمرسلين من العرب، وأن يكون كتابه بلسان عربي مبين. وحين نتلو القرآن الحكيم، نجد أن الله –سبحانه– خاطب العرب بخطاب فيه ما فيه من المدح، فقال تعالى:

﴿ [illegible] ﴾ سورة البقرة–١٤٣.

(١) فقه اللغة لابي منصور الثعالبي ص٢–٣ المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٧/١٩٣٨.

والاية صريحة في مدح أمة العرب، فهي أمة الوسط وخيار الامم، وأعدلها وأحسنها، وهي التي حملت أكمل الشرائع، المهيمنة على الأمم، الرقيبة على الناس.

وقال تعالى:

﴿ 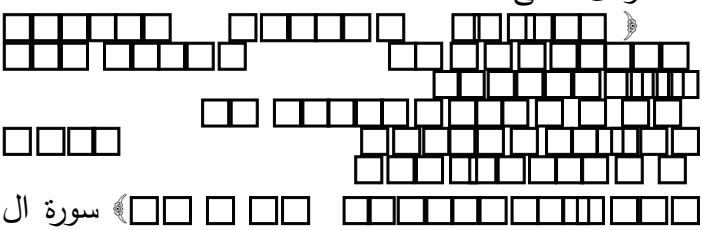 ﴾ سورة ال عمران/١١٠.

والخطاب في الآية الكريمة للعرب –ايضا– لان فيهم الخيرية على الناس لصفات أهلتهم لحمل رسالة الإسلام إلى العالمين، والقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تثبيتا لهم على النهج المستقيم الذي كانوا عليه، وإشعارا لهم أن دينهم هو الدين، ومنهجهم هو المنهج.

وإذا كان من الناس من يظن أن هاتين الآيتين وآيات غيرها جاءت عامة للمسلمين–كلهم– فإن في القرآن قرائن تدل على أنّ المراد بالخطاب هم المسلمون العرب، قال تعالى:

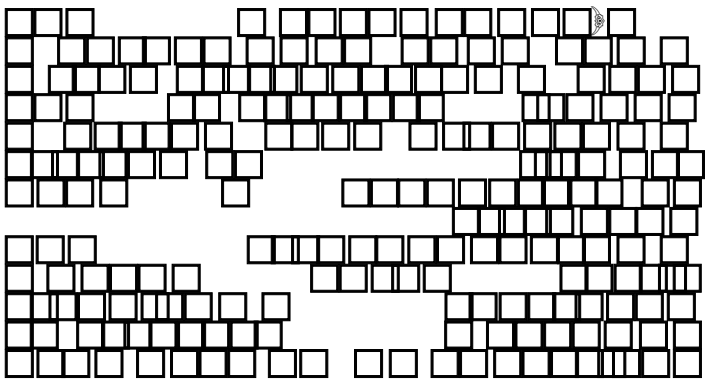

سورة الحج/٧٨.

وواضح من الآية أن العرب هم المخاطبون بهذا، بدليل قوله تعالى:

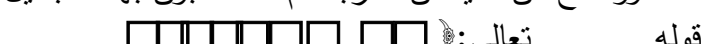

، وكذلك قوله تعالى:

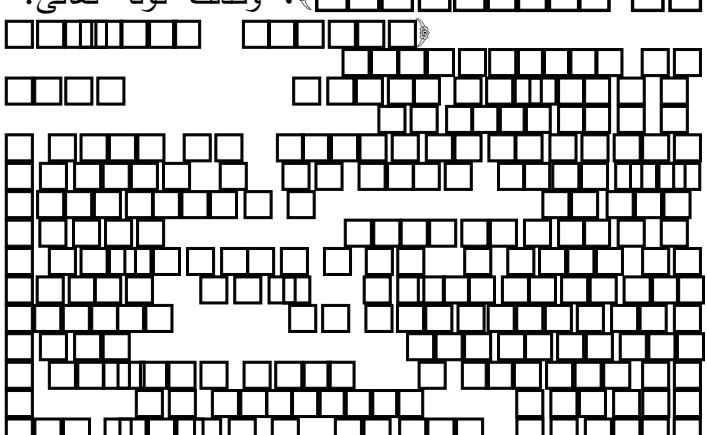

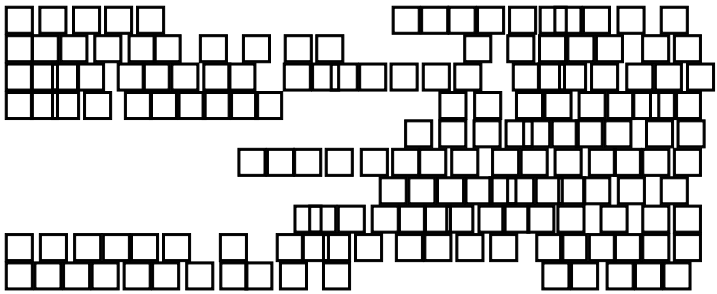

﴿ سورة البقرة/١٢٧-١٢٩.

وواضح من هذه الآيات حقيقة الأبوة لإبراهيم وإسماعيل للعرب.

إن هذه الآيات تدل على أن العرب يمتازون عن غيرهم من الأجناس بميزات بوّأتهم للقيام بنشر دين الله، حين أرسل الله خاتم الأنبياء منهم. وجاءهم هذا المدح من رب العالمين بسبب مسؤوليتهم عن نشر دعوة الله، وذلك لما كانوا يمتازون به من شجاعة نادرة وحب للجهاد في سبيل الله، وتحمل للشدائد. لكن هذا لا يعني أن يستعلي العرب على غيرهم من الأجناس، أو أن يفتخروا به أمام العالمين فيظلموا غيرهم؛ لان الإسلام سوّى بين أجناس الناس كلها في الحقوق والواجبات تسوية تامة، فهم إخوة كما قال تعالى:

﴿□□□□□□ □ □ □□□□□□□□□□□□

□□□□□□﴾، وكما قال النبيﷺ:

(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...)[١].

طبيعة هذا الدين

وحين نلقي نظرة على هذا الدين، نرى أن طبيعته عربية في نشأته، وجاء كتابه بلسان عربي مبين، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، ولولاهم لظل الناس في عبادة النار والحجر والشجر... فهم الذين نشروا الإسلام، وهم حراسه.

يقول الإمام الشهيد حسن البنا –رحمه الله–:

(ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الامم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب

---

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم (باب: لا يظلم المسلم المسلمَ ولا يسلمه، وفي كتاب الاكراه، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه اذا خاف عليه القتل)، ومسلم في البر والصلة (باب: تحريم الظلم).

السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الاعاجم والديلم ومن اليهم. فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه).

ويقول:

(وأحب هنا ان ننبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرفها النبيﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ ابن جبلﷺ:[الا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان]).

ويقول:

(ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها وهذا هو موقف (الإخوان المسلمين) من الوحدة العربية)[1].

موقفان متضادان

هناك موقفان متضادان في أمر العرب في المجتمع الجاهلي:

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس للإمام الشهيد حسن البنا ص٨٥-٨٦ بتقديمنا مطبعة أنوار دجلة، بغداد١٤٢٤-٢٠٠٣.

أما الموقف الأول، فهو موقف تضخيم تاريخ العرب في العصر الجاهلي، وتصويره بصورة المجتمع البطولي، وانه كان يمثل المرحلة الذهبية، وان حضارته كانت حضارة عملاقة، فيها العلم والثقافة، ويطلق المستشرق (هاملتون جب) على العصر الجاهلي اسم (العصر البطولي).

وهذا الأسلوب في تصوير العصر الجاهلي إن هو إلا محاولة من محاولات تحجيم دور الإسلام والتهوين من شأنه: فكأن العصر الذي سبق مبعث النبيﷺ كان مهيئا للقيام بأعظم حضارة في العالم، ولم يزد دور الإسلام عن أن أخذ بأيدي العرب فنهضوا.

أما الموقف الثاني، فهو على العكس من ذلك: يتمثل في الانتقاص من قدر العرب، والحط من منزلتهم الحضارية، والغاية من ذلك: التقليل من أهمية الإسلام والحط من قدره؛ لأنهم يسمونه (دين العرب). وقد قام بهذه العمليات التخريبية في الفكر عدد ليس بالقليل من الأعاجم الذين فتح الإسلام بلادهم، واصطلح عليهم المؤرخون اسم (الشعوبية).

الشعوبية

الشعوبية: حركة مدبرة أحيانا، واعتباطية في أكثر الأحيان، حمل لواءها غير العرب، مهمتها: التقليل من شأن العرب، أولئك الذين حملوا لواء الإسلام، وفتحوا البلاد، وأدخلوا الامم والشعوب في دين الله، وهم الذين عرّبوا الدواوين في صدر الإسلام، ورسموا الإطار العام لهذا الدين، فلا ترى الشعوبية فضلا للعرب على غيرهم، وتلصق المثالب بهم، وقد عمدت إلى قسم من القبائل التي ارتكب افرادها جريمة أو عملا يؤاخذون عليه، فقيدت ذلك وأذاعته من أجل التشهير بالعرب جميعا، وفي الجانب الآخر قامت بذكر مفاخر العجم، وما استحسن من عاداتهم. ولم يكتفوا بهذا، بل قاموا باختلاق قصص ووضعوها في كتب الأدب من أجل نجاح عملهم التخريبي، ومن هذه الكتب: كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[1].

(١) هناك كتاب قيم لأخي الفاضل الأستاذ وليد الاعظمي-رحمه الله- بعنوان (السيف اليماني في نحر الاصفهاني صاحب الأغاني) بين فيه شيئا من الشعوبية التي تضمنها كتاب الأغاني.

ومما قامت به الشعوبية: وضعها للأحاديث المختلقة كذبا في فضائل الفرس، وأسندوها إلى الثقات من أصحاب النبيﷺ والتابعين؛ ومهاجمة اللغة العربية، والتقليل من شأنها، وتحريض أصحاب اللغات الأخرى على الكتابة والكلام بلغاتهم المحلية.

أما بداية ظهور هذه الحركة، فكانت في آخر عصر الدولة الأموية. وقد حذر العقلاء من خطرهم منذ ذلك التاريخ، فكتب والي خراسان (نصر بن سيار) قصيدة يفصح فيها عما يكنه هؤلاء من حقد على العرب، ومنها:

من كان يسألني عن اصل دينهمُ
فإن دينهمُ ان تهلك العرب
قوم يقولون قولا ما سمعت به
عن النبي ولا جاءت به الكتب

فلما ظهرت الدولة العباسية، صار للموالي نفوذ هنا وهناك، وقويت شوكتهم في زمن الخليفة المأمون، فأفصحوا عما كانوا يكنون في أنفسهم.

لقد كان هؤلاء يحنون إلى تاريخهم وجاهلية آبائهم ولا يرون للعرب من فضل، فقال ابن تيمية –رحمه الله– فيهم:

(والغالب أن مثل هذا الكلام –أي تفضيل بعض أنواع العجم على العرب– لا يصدر الا عن نوع نفاق: إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهات اقتضت ذلك)[1].

وقال –أيضا–:

(.. فانّ الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم عبرانيهم، وسريانيهم، ورومهم، وفرسهم، وغيرهم) [2].

وأخيرا فما كان بودي أن أتحدث في الشعوبية التي صارت في ذمة التاريخ لولا وجود مثيلات لها انبعثت من جديد في قرننا الواحد والعشرين، وبخاصة بعد احتلال العراق، وهي صورة طبق الأصل لمنهج الشعوبية الاولى قبل أكثر من الف سنة في تشويه تاريخنا، والطعن بالعرب، وتشجيع اللغات المحلية، وذلك بالتدريس بها في مناهج المدارس في المراحل الدراسية، فيتخرج منها الطالب ويكاد

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص١٤٩.

(٢)اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص١٤٨.

يجهل كل الجهالة اللغة العربية التي كتب بها ديننا وتاريخنا وثقافتنا وحضارتنا...!.

خاتمة

لقد ثبت بما لا يقبل الشك: ان الدعوات القومية التي انتشرت في أوربا مزقتها شر ممزق، وأثرت في كياناتها، وصارت تئن من ويلاتها، لذلك اتخذ الاوربيون منهجا واضحا في التخلي عنها. وحين أقدم الناس في البلاد العربية والإسلامية على تقليد الغربيين في الدعوات القومية، ظهر التمزق والشتات في الأمة المسلمة. فهذا (توينبي) يقدم نصيحتين أولاهما للعالم العربي وثانيتهما للعالم الغربي:

اما الموجهة إلى العالم العربي، فيحذر فيها من هذه الدعوات، خشية أن يصيبها ما أصاب الإمبراطورية الاسبانية فيقول:

(فهل من الضروري حقا أن يتفتت العالم العربي كما تفتتت الإمبراطورية الاسبانية في أمريكا-لسوء الحظ- إلى عشرين دولة مستقلة عن بعضها، تعيش في قوالب ضيقة غريبة النمط؟ هذا هو الوجه الثاني الكالح لحضارتنا الغربية.

ومن المؤسف أن تقلده الشعوب الناطقة بالعربية تقليدا تاماً!. إن سحر القومية جذاب في أمثال هذه المجتمعات الإسلامية المبعثرة، ولكن القومية لن تقود هذه المجتمعات إلى حياة جديدة، بل إلى حكم بالموت والفناء)[1].

وأشير هنا إلى أن الدعوات القومية لم تنشأ ببلاد المسلمين، بل نشات أولا ببلاد الغرب، ولم يكتب لها الانتشار في العالم الإسلامي إلا بسبب سيطرة الغرب عليه، يقول (توينبي):

(ففي الوقت الحاضر الذي يجد الغرب نفسه منذ الحرب العالمية الثانية، ويرى أنه مجزأ إلى أكثر من أربعين دولة قومية مستقلة ذات سيادة، يهدد بانهيار البيت كله كاملا على من فيه، بسبب انقسامه هكذا على نفسه. ومع ذلك، فإن اعتبار الغرب لا يزال له من القوة في العالم ما يبقي جرثومة القومية الغربية قادرة على السريان والعدوى ومن المأمول أن يستطيع العالم الإسلامي على كل حال إيقاف انتشار هذا

(١) الغرب والشرق والمستقبل تأليف: توينبي ص٥٩

الداء السياسي–القومية– عن طريق الشعور الإسلامي القومي بالوحدة)[1].

وأما النصيحة الموجهة إلى العالم الغربي، فقد قدمها بعد أن أدرك حقيقة الاخوة والمحبة التي أوجدها الإسلام بين الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم،وكيف انطفأت جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين التي تعتبر من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام، فقدّم نصيحته إلى الغرب ، طالبا منه ان يقوم بالانتفاع من الظاهرة الإسلامية هذه فيقول:

(إن من أهم الدروس التي من الممكن للغرب ان يأخذها من الإسلام: إيجاد الأخوة والمحبة بين الأجناس المختلفة والشعوب المتباينة)[2].

ويقول:

---

(١) الغرب والشرق والمستقبل ص٢٨.

(٢) محاضرات في الثقافة الإسلامية تأليف: أحمد محمد جمال ص١٤٣–١٤٤،الطبعة الاولى ١٣٩١–١٩٧١، دار الفكر ودار الثقافة.

(إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين، يعد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام)[1].

ويعلن (توينبي) رأيه صريحا أمام العالم، فيذكر أن الشيوعية والقومية عدوّان للأديان فيقول:

(إن الشيوعية والقومية هما العدوان للأديان؛ اذ هما شكلان مختلفان لموضوع فاسد: الا وهو عبادة الإنسان لنفسه)[2].

وأخيرا: لقد كان للدعوات القومية العربية(هيل وهيلمان) في البلاد العربية–ومنها العراق– وكان كثير منها يحمل فكرا غير الفكر الإسلامي، ومنهجا غير المنهج الإسلامي، وقد عانى دعاة الإسلام من تلك الدعوات، ووقفوا بفضل الله يكشفون زيفها، ويميطون اللثام عن وجوه دعاتها، وينبهون الأمة إلى مخاطرها، وليس هذا في العراق وحده، بل في كثير من أقطار العالم الإسلامي. ويمضي الزمن، وترفع

---

(١) الإسلام والوعي الحضاري للدكتور أكرم ضياء العمري ص١٧٣، الطبعة الاولى ١٤٠٧–١٩٨٧، دار المنارة، جدة.

(٢) معلمة الإسلام تأليف أنور الجندي ٢/٢٢١.

الدعوة إلى القومية العلمانية رأسها مرة أخرى في العراق ولكن عند غير العرب، ويُبتلى بهذا الداء شعب مسلم عريق بغيرته على الإسلام وجهاده في سبيل الله. وإذا كانت الأحزاب العلمانية قد حملت لواء هذه الدعوة بيد أنها لم تبقَ محصورة بهم بل سرت عدواها حتى في صفوف قسم من دعاة الإسلام من حيث لا يشعرون، وذلك بسبب الأحوال السياسية التي مرت بالعراق قبل دخول قوات الاحتلال، وازدادت بعد دخولها، واستغلت الأحزاب العلمانية هذه الفرصة، فعملت عملها في تقوية تيار الفكر القومي الذي يفرق ولا يوحد. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ان الفكر الشعوبي الذي سقطت راياته قبل قرون وصار في متاحف التاريخ، انبعث الآن مرة أخرى من جديد، ليقلل من شأن العرب بل ويتضايق حتى من سماعه بهم.

إنها مؤامرة على الشعوب المسلمة هنا وهناك، وليت المسلمين يدركون ما يراد بهم وبأمتهم.